# غسّان لكلّ النّاس

فاروق غندور (*)

حدث ذلك في الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم سبت مشؤوم في الثامن من تمّوز ١٩٧٢. وانطوت بذلك حياةٌ مثيرة وضّاءة لمبدع مناضل كان من غير المعقول أن تنتهي بغير الاستشهاد، وهو الذي عاش ينزفُ كلَّ لحظة من دمه وأعصابه وعروقه في سبيل قضيّة آمن بها ووهبها عمره. غادَرَنا غسّان وهو في أوج عطائه.

دويّ الانفجار الذي أودى بغسّان فجّر أسىً وحزناً في قلوب رفاق غسّان ومحبّيه وقرّائه، وتصدّر عناوينَ الصحف اللبنانيّة والعربيّة والأجنبيّة نبأ الاغتيال وملابساتِه لأسابيع.

وفي القاهرة، وبرغم الظروف التي كانت سائدة آنذاك، فقد خرجت جمهرةٌ من الأدباء والصحافيّين حالَ سماعهم نبأ اغتياله بتظاهرةٍ عفويّة صامتة اخترقت شوارعَ القاهرة تعبّر عن الحزن على هذه الخسارة الفادحة. كذلك في لبنان، وفي الكثير من البلدان العربيّة التي كانت تعرف غسّان جيّداً. وتلازمت الفجيعة بغياب غسّان مع الفراغ الذي خلّفه في قلوبنا جميعاً وفي ساحات النضال التي كان يخوض غمارها.

في صناعة التاريخ الاستشهادُ هو قدر المناضلين، واستشهادُ المناضلين بالنسبة للنخبة هو مصدر فخر واعتزاز عبّر عنه المرحوم الدكتور يوسف ادريس لاحقاً فكتب: «أحسستُ لأوّل مرّة في حياتي بأنّي أفخر بكوني كاتباً من كتّاب القصّة العربيّة القصيرة حين استشهد غسّان كنفاني. فحياته حين انتهت هكذا قد انتقلت به من حيث الكتّاب إلى حيث الأبطال، وكان أوّل كاتب قصّة يفعل هذا، بل بالأدقّ أوّلَ كاتب في تاريخ أدبنا العربي يعيش قضيّته إلى حدّ الشهادة. أحسستُ بفخر أنّي أنتمي لغسّان وأنّه من نفس جيلي، وأنّ تاريخ الكتابة العربيّة ـ الكتابة، وليس صنعة الكتابة ـ سيبدأ هنا، صفحةً جديدة تُنهي تاريخاً طويلاً من العيش ذلاً ومن قضاء العمر في خدمة السلطان، كلّ سلطان.»

وكتب الشاعر محمود درويش الذي سبق لغسّان أن أعلن ولادته في العالم العربي ما يلي:

**طوبى للقلب الذي لا توقفه رصاصة، لا تكفيه رصاصة!**
**نسفوك كما ينسفون جبهةً وقاعدةً وجبلاً وعاصمة، وحاربوك كما يحاربون جيشاً، لأنّك أكبرُ من جبهةٍ وعاصمةٍ، ولأنّك أعظمُ من جيش، لأنّك رمزٌ وحضارة جرح!**

كان غسّان شخصيّة فذّة خلّاقة متعدّدة المواهب. كان كاتب قصّة قصيرة، وروائياً، وصحافياً، ومعلماً، وأحياناً ناقداً، ودارساً سياسياً، ومحاضراً ومناقشاً، حاضر البديهة، واسع الاطّلاع، وفنّاناً. وكان في نفس الوقت حزبيّاً ملتزماً سياسيّاً. ولم يجانبه النجاحُ في أيّ من هذه النشاطات، حتّى إنّه يمكن القول بأنّه كان مؤرِّخاً لتلك الحقبة الذهبيّة من النضال ومن الحركة الأدبيّة التي عاشتها بيروت في الستّينات ومؤرِّخاً بالذات للقضيّة الفلسطينيّة التي عاشها حتّى النخاع.

كان غسّان منذ عام ١٩٥٤ عضواً بارزاً في حركة القوميّين العرب إلى أن حُلّت، ثمّ صار عضواً قياديّاً في الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين. وحين استشهد كان لا يزال عضواً في المكتب السياسي للجبهة الشعبيّة ورئيساً للإعلام فيها وناطقاً رسميّاً باسمها ورئيساً لتحرير مجلّة **الهدف** الناطقة باسمها.

كلّ هذه المواهب أَغْنَتْ نضالَ غسّان السياسي ورؤيته المستقبليّة، وكذلك أَغْنَى نضالُه وتفاعله بالأحداث بحكم عمله موهبتَه الأدبيّة. هذه المواهب وذلك الالتزام جعلت من غسّان مثلاً فريداً ومتميّزاً يحتذى.

رفاق غسّان وزملاؤه وأصدقاؤه الذين كانوا يدركون أهميّة هذه القيمة النضاليّة وأهميّة التراث الأدبي الذي تركه تنادوْا لجمع هذا التراث إثر استشهاده. وتألّفت لجنةٌ دُعيت آنذاك على عجل «لجنة تخليد غسّان كنفاني»، وبرزتْ مفارقة «مَنْ يُخلِّد مَنْ؟»

عُنيتْ هذه اللجنة بجمع التراث وإصداره في مجلّدات تحت عنوان «الآثار الكاملة». صُنّفت الآثار وأُعدّت في سبعة مجلّدات صدر منها المجلّدالأوّل **الروايات** (٦٠٠ صفحة).. بعد ثلاثة أشهر من تاريخ الاستشهاد. ثمّ صدر بعده بسبعة أشهر المجلّد الثاني **القصص القصيرة** (١٠٠٠ صفحة)، ثمّ الثالث **المسرحيّات**، فالرابع **الدراسات الأدبيّة**. وتضمّنت المجلّدات الثلاثة الأولى بعض

(*) رئيس مؤسّسة غسّان كنفاني الثقافيّة.

المخطوطات التي لم يكن غسّان قد نشرها في حياته أو التي لم تتضمّنها المجموعات التي سبق أن نشرها. وأمّا المجلّد الخامس **الدراسات السياسيّة** فلم يتمّ طبعه حتّى الآن لعدّة أسباب. وأمّا السادس الذي كان من المفروض أن يضمّ بعض المجموعات القصصيّة والروايات التي لم تنشر سابقاً فقد نُشرت موادُّهُ في كتب إفراديّة وأصبح من السهل جمعها في مجلّد. وأمّا المجلّد السابع المتعلّقة مواده بالمقالات النقديّة والوجدانيّة وخلاف ذلك فسيصدر قريباً في كتب إفراديّة إذْ تعذّر علينا إصداره بهذه المناسبة.

هنا لا بدّ من الإشارة إلى الاهتمام بأدب غسّان عالميّاً. أوّل اهتمام عالمي بأدبه كان ترجمة قصّته «موت سرير رقم ١٢» من قبل المستشرق البريطاني «دنيس جونسون دايڤيز» وقد نشرها ضمن مجموعة مختارات من القصص القصيرة لأدباء عرب. ثمّ توالت الترجمات وبلغات مختلفة، ولا سيّما بعد حادثة الاستشهاد. وقد تعاونّا مع دور نشر أجنبيّة في عواصم مختلفة على إصدار هذه الترجمات؛ غير أنَّ دوراً أخرى أخذت بنفسها المبادرة (كما يحدث دائماً) وترجمتْ ونشرتْ وباعتْ. بل قد تصلنا أحياناً نسخٌ لترجماتٍ من أصدقاء لا علم لنا بها. ولا شكَّ أنَّ ثمّة سواها من الترجمات لا عِلْم لنا به. ما نعرفه أنَّ هناك أكثر من ثلاثين ترجمة بأكثر من عشرين لغة لروايات غسّان وقصصه.

يحضرنا هنا قَوْلٌ قرأناه في إحدى الصحف خلال مقابلة مع أحد المستعربين اليابانيّين، سُئل: «متى بدأ اهتمام القارئ الياباني ودور النشر بالإنتاج الأدبي العربي»؟ فأجاب: «أحدُ الكتّاب اليابانيّين الذي يجيد اللغة العربيّة قرأ **رجال في الشمس** لغسّان كنفاني فأُعجب بها وترجمها إلى اليابانيّة ونشرها، فلاقتْ رواجاً وإعجاباً شديديْن من القرّاء اليابانيّين ولفتت نظر المترجمين الآخرين فأقبلوا على ترجمة غسّان وسواه من الكتّاب العرب. ونستطيع أن نقول إنَّ الفضل في تعريفنا بإنتاج الأدباء العرب يعود إلى غسّان كنفاني» (عن جريدة **الحياة**).

إنَّ عشراتٍ من الطلّاب والباحثين قد قدّموا أُطروحاتهم في دراسة أدب غسّان من نواحٍ مختلفة ونالوا على ذلك درجات جامعيّة. وقد قرّرت جامعات عدّة أدب غسّان على طلّابها باللغة العربيّة وباللغات الأجنبيّة؛ كما أنَّ دولاً مثل سوريا والمغرب والجزائر قد قرّرت لطلّابها في الصفوف الثانويّة وفي الجامعات قصص غسّان ورواياته.

وفي العاشر من هذا الشهر يُقام مهرجان ليوم كامل في جامعة آرلنغتن نورنبورج بألمانيا بمناسبة الذكرى التي نحتفل بها الآن يتحدّث فيها سبعة من الأكاديميّين والمستشرقين عن مختلف نشاطات غسّان السياسيّة والثقافيّة.

نالت قصص غسّان ورواياته الكثير من الجوائز وأحدثتْ عند صدورها دويّاً وصدى في المحافل الأدبيّة. فأوّل قصّة كتبها غسّان، وهي «القميص المسروق»، قد نالت في مسابقة للقصّة القصيرة على مستوى العالم العربي الجائزة الأولى بفارق كبير في العلامات؛ وأمّا رواية **ما تبقّى لكم** فقد نالت جائزة أصدقاء الكتاب في لبنان. ثمّ نال غسّان جائزة منظّمة الصحافيّين العالميّة (١٩٧٤)، وجائزة اللوتس التي يمنحها اتحاد كتّاب آسيا وافريقيا، فضلاً عن التنويه والإعجاب اللّذين صدرا عن الكثير من النقّاد بصدد **أمّ سعد** و**عائد إلى حيفا** و**الأعمى والأطرش**؛ وقد قال أحد النقّاد اللبنانيّين في الرواية الأخيرة إنَّ أحد فصولها هو أروع ما كتب في الأدب العربي في عقود من هذا الزمن.

أدبٌ كهذا، تراث ثريّ كهذا، إنسانٌ حضاريّ كهذا، هل نكتفي بنشر تُراثه ووضعه بين أيدي القرّاء والدارسين فحسب على ما في هذا العمل من أهميّة؟

كان غسان يقول «نحن لسنا جيل الثورة». ولقد أهدى غسّان مجموعته القصصيّة **عالم ليس لنا**: «إلى فايز... إلى ليس.. إلى كلّ الأطفال الذين نطمح بعالم لهم».

من هذا المنطلق تأسّست في بيروت في الذكرى الأولى لاستشهاد غسّان «مؤسّسة غسّان كنفاني الثقافيّة»، وهي «مؤسّسة ثقافيّة لبنانيّة» تحاول أن تحقّق بعض الطموح الذي أراده غسّان. وقد عُنيت المؤسّسة منذ تأسيسها بفتح رياض للأطفال اللبنانيّين والفلسطينيّين الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاث والست سنوات، واتخذت المؤسّسة مراكز لهذه الروضات في المخيّمات وجوارها حيث تشتدّ الحاجة وحيث يتجمّع المحرومون.

**مركز المعلومات والتدريب ـ مؤسسة غسّان كنفاني الثقافية، بيروت**

ومنذ السنة الأولى التي تأسّست فيها أوّل روضة للأطفال وحتّى الآن تسير المؤسسة بخطى ثابتة وغير متسرّعة نحو النموّ وتطوير الأداء. ونستطيع أن نزعم بأنّ الأساليب المتّبعة في هذه الروضات هي أحدثُ ما توصّلت إليه الدراسات الأكاديميّة في التعامل مع الأطفال بهدف تطوير قدراتهم وتنمية شخصيّاتهم. ونتمنّى على كلّ المهتمّين والعاملين في هذا الحقل زيارتنا للاطّلاع، ولتبادل الخبرات والقدرات. ونحن هنا منفتحون ولا عقد لدينا وشعارنا «طموح غسّان لكلّ الأطفال».

تدير المؤسّسة الآن ثماني روضات أطفال (تستوعب حوالي ٨٠٠ طفل)، ومركزيْن للمعاقين أحدُهما للإعاقات الجسديّة في بيروت وآخر للإعاقات العقليّة في صيدا. وبرغم كلّ الأحداث التي تعاقبت على لبنان إبّان الحرب استمرّ العدد الأكبر من هذه الروضات في العمل. ولقد استحدثت المؤسّسة أثناء ذلك برنامج الروضات المنزليّة في وقت الأزمات، وقامت السيّدة آني كنفاني زوجة الشهيد غسان بإقامة روضة مؤقّتة أثناء حصار بيروت عام ٨٢.

اعتمدت المؤسّسة في تمويلها على المساعدات الماديّة أو الهبات من أصدقاء غسّان أوّلاً في البلدان العربيّة (وخاصة الكويت التي عمل فيها غسّان لفترة) ومن المؤسّسات العربيّة والأجنبيّة المهتمّة بهذا الحقل من العمل.

ونحن سائرون في التطوُّر، في البناء وإعادة البناء: بناء الحجر الذي يتهدَّم وتأهيل العاملين لدينا في الجامعات المختصّة وتدريبهم في دراسات ودورات خاصّة ساعين إلى الوصول إلى أفضل مستوى ممكن..

قد نكون مقصّرين إعلاميّاً، وهذا ليس طموحنا.. طموحنا أن تكون إنجازاتنا هي إعلامنا، وهي الحافز لنا في الاستمرار وتحقيق بعض من أحلام غسّان وطموحاته.

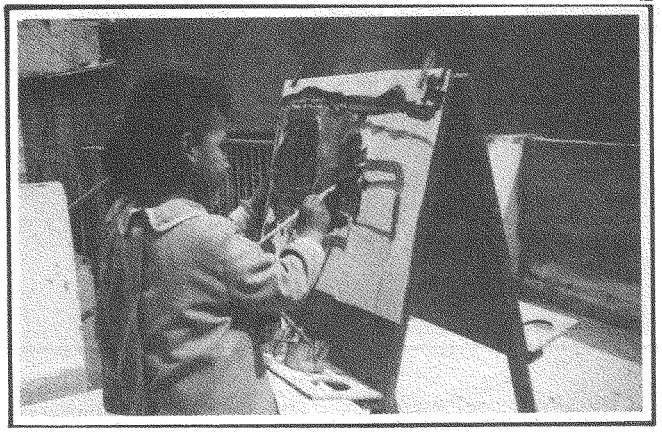

روضة مار الياس

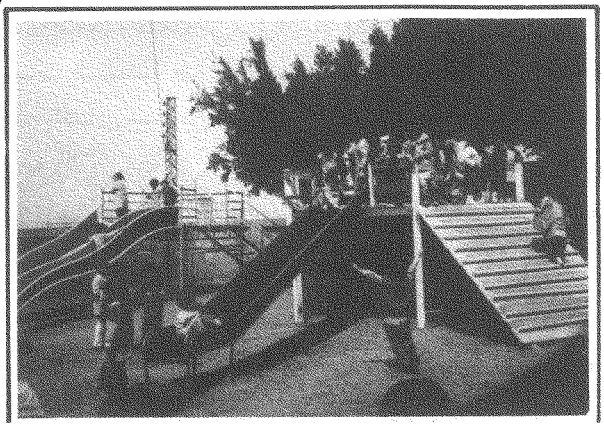

## نشيد غسان كنفاني

ليمونهْ وزهرهْ ووردهْ جوريّهْ
وانتِ يا أرضي غاليهْ عليَّ
غاليهْ بأحلامي، غاليهْ بأيّامي
غسّان، غسّان، غسّان علّمنا حُبّ القضيّهْ

بيقولوا نسينا، بيقولوا نسينا
وبحُبّك ياما ياما، ياما انكوينا
لاكتبْ ع قلبي لاكتُبْ ع ترابي
فداكِ، فداكِ، فداكِ روحي، فداكِ عنينا

ليمونهْ وزهرهْ ووردهْ جوريّهْ
وانتِ يا أرضي نوري وعينيّ.
صرت رصاصهْ صرت شظيّهْ
من يوم ما عرفنا درْب الحريّهْ
كانت أمنيّهْ، صارتْ غنيّهْ
غسّان، غسّان، غسّان علّمنا حُبّ القضيّهْ

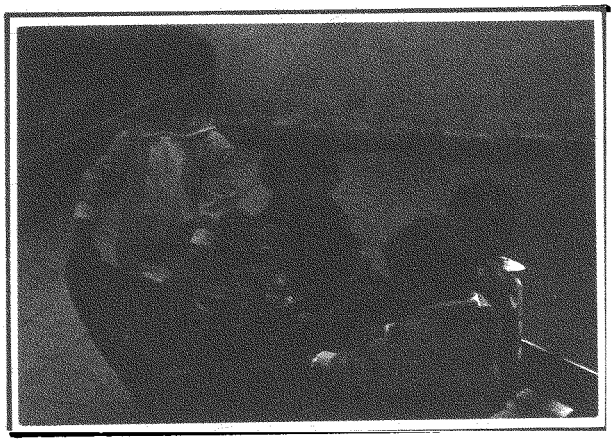

(*) نشيد يغنّيه الأطفال في جميع روضات «مؤسسة غسّان كنفاني الثقافية».